رسالة الى فتى فرنسيّ في الجزائر

بقلم جان سوناك

يدرك جميع الناس اليوم ، في فرنسا وغيرها، من ساسة ورعية، أن العقبة الحقيقية التي تحول دون تبني حل صحيح لمشكلة الجزائر ، هي مغالاة المعمرين المقيمين هناك، والفرنسيين منهم خاصة ، اولئك المعمرين الذين يعز عليهم ان يتخلوا عن امتيازات ومصالح ومؤسسات رأسمالية يستمتعون بنعمائها ويعيشون بفضلها مترفين ، على حساب جوع الشعب الجزائري ، فيكرهون الحكومات المتتالية على ان تقف من الجزائر موقفاً لا تؤمن به . إن هؤلاء المعمرين الذين يملكون أحسن أراضي الجزائر وأوسعها (٦٠٠٠ مالك كبير يملكون ٢١٦٥٠٠٠ هكتار من الأراضي) ، والذين يسيطرون على الحركة المالية فيها ، هم الذين جعلوا رئيس الوزارة الفرنسية الاشتراكي يتراجع بعد أيام من تسلمه الحكم ، حين لقيته جموعهم يوم السادس من شباط فرجمته بالحجارة والبندورة . وهم الذين يخفون دوماً الوجه الحقيقي لمأساة الجزائر ، مدفوعين باهوائهم ، أقوياء بسيطرتهم ، على اجهزة الحكومة الفرنسية بالجزائر ، وبامتلاكهم لجميع ادوات الحكم هناك بل في قلب العاصمة الفرنسية .

ونحن نقدم هنا ترجمة أمينة لرسالة وجهها الكاتب الحر « جان سوناك J. senac »[1] إلى فتى من المعمرين ، نلقى فيها، رغم بعض الهنات القليلة ، تعبيراً عن رأي عدد كبير من الفرنسيين الذين يدركون الأمور حق ادراكها ويحملون رسالة سلام صادقة عميقة .

قد تعجب يا عزيزي « جان بيير » أن أعاود الحديث عن موضوع طالما طرقنا جوانبه وقلبنا وجوهه خلال جدل طويل أمده ، كنا نسوقه في شوارع مدينتنا ، وعلى أسطحة المقاهي . وقد تعود إلى اتهامي مرة أخرى بأنني من أولئك الثائرين ضمن غرفهم وأبراجهم، أنت الذي تقضي شطراً من العام في أرض أبيك بالجزائر ، ثم تعود الى باريس ونعلاك ما تزالان تحملان غبار كروم العنب . إن قلبك ليألم من الجور عندما يحطم هذا الجور وجهاً فرنسياً ، ولكن هل ينفتح هذا القلب ليلمس آلام سائر الناس ؟ عليك ان تعلم قبل كل شيء ، علماً لايأتيه الباطل ، أنني ما تصورت الجزائر يوماً خلوة من أولئك الناس ، وأنني لا أستطيع أن أتصورها اليوم خلوة منك . لا ، ان الجزائر لا يمكن أن تكون مسرحاً للنزعات العرقية. ولئن كنت أحارب فيك ما تركه لجيل الشيخ من آثار ، فما ذلك إلا لأبقي بين ظهرانينا ذلك الرجل الذي لاتستطيع إلا أن تكونه .

إنك تحب الجزائر التي ولدت فيها وترعرعت. إن لك فيها أبويك وأمواتك وذكرياتك وآمالك ؛ وإنها عندك محل العمل والراحة . إنها ، بقول مجمل ، وطنك وعلة وجودك. إنك تشعر أن تلك الأرض منك وأنها تجري في عروقك ، وأن الروابط بينك وبينها وشيجة الأواصر . إن هذا كله صحيح ، بل هو اعدل وخير . ولكن ، ما دمت تحب تلك الأرض ، هل تساءلت حقاً ماهي وما حقيقة كيانها ؟ يكون الإنسان إنساناً في عصرنا عندما يرى الأمور بجلاء . إنني اعلم أن التبجح يخفي وراءه فوضى وألماً ولا يجد إلا اليأس مخرجاً له .

يا لعدالة الكون! ها أنتم أولاء، أيها المعمرون الفرنسيون الذين زرعتم اليأس، برتد عليكم ما زرعتم ، فإذا بالجلاد يغدو اليوم ضحية. قد يكون الكلام الذي أستخدمه فظاً بعض الشيء ، وقد لا يخلو من جفاوة . أجل ولكن هلا تأتى لك أن تتجول ، عند الساعة الثالثة من فجر شهر كانون الأول ، في شارع « ليز » من مدينة الجزائر ، لترى بأم عينك أولئك الأطفال الصغار يموتون برداً في أكواخهم التي تأكلها الديدان، أولئك الصبية الذين يطردهم رجال الشرطة بأقدامهم وينتهرونهم بالأرجل فوق رؤوسهم ؟ ألم تشهد تلك الجراح الثخينة في قلوب العمال ؟ « أيتها العنزة، أيها السارق، أيها الكسول، يا جذع التين » : كلمات يسلق بها أولئك العمال ، هي أقسى عندهم وأمضى من مثاقب الحديد ، كلمات يكون من شأنها أن تخلق جراحاً عميقة تندس فيها رياح الثأر لامحالة . الكرامة ! عليك أن تقر أن جميع الناس في حاجة إلى الكرامة ، وأنها إذا انتزعت منهم لابد أن يأخذوها غلاباً . لن أعاود الحديث عن أخطائنا التي ارتكبناها وعن أسباب مأساة الجزائر . فكل الناس – وانت من بينهم – يعلمون ما هي . غير أن الدم يسيل اليوم . نعم إن الناس قساة حقٍ ، لايدركون إلا شيئاً واحداً : الموت . وإن أولئك القتلى الذين يسقطون صرعى كل يوم ليعذبون ضمائرنا ، نحن الذين أبحنا موتهم بصمتنا أو بقولنا . وكم من الصعب ، في زمن القتلى هذا ، أن يقول المرء كلمة أو أن يتابع صمتاً غير قتال. هل تعرف ، ياجان بيير ، قصة أولئك الذين ماتوا في سبيل الشمس ؟ لقد كان ذلك ، فيما أعتقد عام ١٩٤١ ، في مدينة « شيراغاس ». لقد وضع مدير ذلك البلد لوحة فيها : « يحرم هذا الشاطئ على اليهود والعرب والكلاب » . فإذا بعدد من لأشخاص الذين حرم عليهم هذا الشاطئ ، وهم من العمال العرب الذين انتزع

(١) مجلة Esprit ، عدد آذار ١٩٥٦ ، ص ٣٣٥ – ٣٣٩ .

منهم خبزهم وكرامتهم ، لا يستطيعون أن تنتزع منهم أيضاً الشمس ومعها البحر ، تلك الثروات الوحيدة التي بقيت لهم في الحياة ، فيرتمون بأجسادهم العارية الفخورة وسط الأمواج. ثم يحبسون في سجون صغيرة مات فيها اكثرهم مختنقين . بل إن بعضهم ظل يقاوم أعنف المقاومة ليتنسم الهواء أمداً طويلامن ثقب المفتاح .يا للرجال الذين تسرق منهم حتى شمسهم ! لست أعلم ، لعمري ، جريمة أكبر من هذه . إنها وحدها قمينة بأن تبزر أعنف ردود الفعل . ولكن دعنا والحديث عن الجرثم ، فلطالما قصصت عليك الأعمال الفظة التي تتكلم عنها صحفنا اليوم دون كبير اهتمام . إنه ليعنينا أكثر منها الآن أن نستمسك بلغة الواقع ، بلغة لا تعرف الحياء ، فيها من القحة والفضيحة ما في حقيقة الرصاص . علينا أن نلجأ إلى هذه اللغة الواقعية دون أن نفوت لحظة . بل لعل الوقت قد فات ...

إنك تقر معي بأن معركة الجزائر معركة خاسرة ، وأن « الأسياد » فيها هم الخاسرون.وأنت بهذا تبرهن على تبصر بالأمور يعوز كثيراً من مواطنينا . فالقوة والقمع والإفراط في استخدام السلطة لن تؤدي – في أقوى صورها – إلى أكثر من أن تقيم بعض خطوط المقاومة . ولن يطول هذا أكثر من عام أو عامين أو خمسة أعوام على أبعد تقدير . إن الشعب الجزائري قد ربح المعركة . والإعتراف بذلك ليس إلا مسألة أيام وتنظيم . ولهذا تجدني ، أناالذي ناضلت في سبيل هذه الحرية وهذا الإستقلال ، أنا الذي حاربت المزاعم الأنانية التي يحملها آباؤنا ، أقول اليوم ملء فمي إن الوطن الجزائري قد تم بناؤه ، وإن مشكلة الجزائر قد غدت بعد اليوم مشكلة اوروبية (مشكلة الأوروبيين) . أي أن ساعة الأختيار قد اتت ، وان إلقاء الأقنعة غدا قضية حياة أو موت .

نعم إن العرب قد ربحوا وطنهم . إن اوروبا تعيش منذ أكثر من قرن على هذه الأرض ، ارض الجزائر ، دون ان تعبأ بتسعة أعشار سكانها . فمن العدالة الحقة أن يستعيد هؤلاء أخيراً حقوقهم . إن العدالة قدحملت السلاح . وإن داءنا كان « غيابنا ». إنك لتقول لي ، مدفوعاً بقوة اليأس : « سوف نقاوم ما استطعنا المقاومة ، ولكننا لن ندع الأمور تجري كما تريد » ومعنى قولك هذا أن تصوب بقوس عفى عليها الزمن . أنت تعلم أن وتر القوس قد اهترأ ، ولكنك تريد أن تصوب مع ذلك . إنك لتصنع ما يصنعه الثائرون العرب : تشعر انك مهان محروم ، فتحمل السلاح ، وترضى بالموت ، وتعزم على الدفاع عن ارضك . سوى أن الثائر الجزائري على حق وصواب ، وهو يناضل في سبيل المستقبل ، أما انت فعلى ضلال ، وأنت تضحي بنفسك في سبيل الماضي . وأنا أدري ما أقول حين أقول بعد تدبر كلمة « تضحي » . ذلك أن مقاومتك عديمة الجدوى ، وأنت تعلم ذلك حق العلم . وجل خطئك أنك غدوت ربيب العادة ، وأن الخيال يعوزك . فأنت تحسب مرة أخرى أنانيتك كبرياء .وباسم هذا الشعور الأحمق تقبل بأسوأ الحلول : تقبل بأن تثبت حتى النهاية ، حتى لا تجد بعد ذلك سوى الفرار أو الردى. تقول لنفسك : « إنني أثبت بذلك على أقل تقدير أني لست جباناً » . فلم هذا ، رباه ؟ وللدفاع عن أي مصلحة ؟ لئن كنت فهمت حقاً ما تريد ، أنت ترضى بأن تفقد حياتك ومزرعتك..إن هذا لهو « التنازل » بعينه . إن ماعليك أن تعيد النظر فيه هو نظرتك إلى الكون. الحق اني فهمت شأنك : أنت تعلم أن الأمور قد تغيرت ، وتعلم أن الشعب الجزائري ، ومن ورائه جيش التحرير الوطني ، سوف يحصل عاجلا على الاعتراف بشخصيته وعلى الإصلاحات الإجتماعية والإقتصادية اللازمة لتوكيد تلك الشخصية ، وتعلم أن الهزيمة ، هزيمتك ، آتية قريبة . ولكن اعتقادك « بتفوقك » يجعلك تأمل مع ذلك وقوع معجزة تنقذك . أنت تقول لنفسك : « في خاتمة الخواتيم ، سوف اناضل ، وسوف اظفر » . وأنت تحلم أحياناً بأفريقيا الجنوبية ، دون أن تدرك أنك تعمى عن قضية سوف تخسرها قريباً لأنها قضية غير عادلة . إنك تضع احلامك أمام الواقع القاسي . إنه ليحلو لك أن تداعب الأخيلة والأساطير ، أنت الذي تحقر الشعراء أمام الملأ . الحق ، إنكم لتدهشونني دوماً ، أنتم معشر رجال الأعمال ، بأهوائكم ونزواتكم وبما تصوغون من أخيلة وأساطير . أما اليوم فإنكم تخيفونني حقاً . أنتم تقبلون بيسر أن يكون مصيركم أحد اثنين : « آلة حدباء تحملون عليها ، أو حقيبة سفر تحملونها » . إنكم لتغدون بدوركم شركاء في إرادة طالما آلمتني . إن الجزائر سوف تتكون شئنا او أبينا ، غير أنها إن خلقت دوننا ، فالعجينة سوف يعوزها بعض خميرتها . لئن اختارت الجزائر ، عن تدبر وروية ، الشرق وحياة الشرق ، فذلك حق لها ، وليس لنا ما نقوله . ولكن ، لئن كانت الجزائر مرتبطة بالشرق ، فهي قد اصطفت مع ذلك مجموعة من النظم المستمدة من الغرب ، ومن اجل هذا أظل قانعاً بأن هذه الثورة القائمة فيها تعنينا نحن الغربيين القدامى ، وبأن لنا دوراً نلعبه في ذلك الوطن الجزائري ، وبأن لدينا نحن أيضاً بعض الحجارة نقدمها للبناء المشترك . وهكذا اذ نسهم في حياة ذلك الوطن ، نتلقى بدورنا دماً فتياً وقوة ناهضة . إنني مازلت أؤمن ، رغم كل الظواهر ، أن الشرق والغرب ، إذا ما اجتمعا على صعيد عمل جديد ، سوف ينتجان في السنوات المقبلة ، وجه خلاص يقدمانه للعالم . وأنا اعتقد أن الشرق والغرب في حاجة إلى الشباب وإلى أن يتقمصا معاً فكرة جدية عن الإنسان . والجزائر ينبغي أن تكون البوتقة التي تولد فيها تلك الحضارة وتلك الرسالة ، رسالة السلام . ولهذا ليس من حقنا أن نبرح الأرض التي يمكن أن نحقق فيها أنفسنا . غير أن هذا الحق يفرض علينا واجبات . أولها أننا إذا ما اخترنا الحياة في ذلك البلد الجزائري ، دون جمجمة ، فعلينا أن نقبل مخلصين واقعه . وواقع ذلك البلد هو أنه بلد عربي بربري مسلم ، وأنا ، نحن واليهود أقلية فيه ، وأننا بحكم كوننا كذلك ، لن تكون لنا سوى مكانة الأقلية .وواقع ذلك البلد يفرض على مليون اوروبي ، فوق تلك الأرض المستقلة ، أن يتخلوا عن امتيازاتهم ليسهموا ، بنسبة الواحد إلى تسعة ، في بناء نظام عدالة ومساواة. وواقع ذلك البلد أننا سوف نفقد بعض الرفاهية ، رفاهية الأسياد ، وبعض ممتلكاتنا الشاسعة فيه، واقعه أن في وسعنا ، إذا اردنا–وبعد أن تتحق المساواة في الحقوق والواجبات ، وبعد ان تعود العدالة إلى نصابها ، وبعد فترة لابد أن نلقى فيها بعض المصاعب نتيجة لروح الثأر – في وسعنا بعد هذا كله أن نقدم للعالم وجهاً كريماً من وجوه الإنسان ، معتمدين على ما بيننا من فوارق . ولا شك أن مثل هذه التجربة سوف تكون صعبة وفريدة في بابها . غير أنها جديرة بأن تقتحم . لا ينبغي أن يداخلنا الوهم أبداً : سوف نلقى في البداية بدورنا بعض ضروب الذلة. بل إن القتلى الذين يموتون اليوم في « هذه الحرب» يخلقون منذ الآن هوة مخيفة من الفظاظة والثأر والمساومات البشرية . ولكن إذا نحن أبينا أن نختار السهولة ، ولم نجر مع العاطفة ، فلا بد أن يأتي يوم ، يخلق فيه ، من وراء الأصول والأديان ، ومن وراء الماضي الأليم ، معنى عميق للعمل المشترك والحياة المشتركة .

وأنت، مادمت من المعمرين ، لك الربح كله في هذا. وايا كان الأمر ، فليس أمامك غير هذا : فإما أن تقبل بهذا الحل أو تتخلى عن القضية . وهنا ينبغي أن نختار ، مهما يكن الثمن ، الجهر بالحقيقة القاسية : سوف يأتي يوم يلفي فيه مليون أوروبي (بينهم ما لا ينوف على ٢٥٠٠٠ معمر)أنفسهم في وطن جزائري حر ، وقد خيبت آمالهم ، من جانب الحكومة الفرنسية (التي

"إن الشعب الجزائري قد ربح المعركة ، والاعتراف بذلك ليس إلا مسألة أيام"

ثائرة

ان في قلبي آلام بلادي
حزن قومي في فؤادي
ومنى تعبق بالطيب تنادي
للجهاد
وكأن النار في قلبي تغنّي
ولهيب النار في إشعاع ناري
وأرى حلمي في ضوء النهار
يا رفيقي في المنى والوثبة الحمراء
إنما الفجر تهيّا [هيّا
حان لي ان اتغنى
هات لي ما أتمنى
إعطني اليوم سلاحي
لا تلمني في كفاحي
سأباهي بجراحي
إنها ورد صباحي
يا لثارات فلسطين الذبيحه
يا لثارات الكرامات الجريحه
لي نصيب من دم الأعداء لن احرم منه
سوف يروي الدهر عنه
ان روحي للفداء
انا اخت الشهداء
أنت لن تذهب للساحة وحدك
لا تدعني لشقاء الروح بعدك
ليس يثنيني عن الوثبة صدُّك
ان وجدي في بلادي هو وجدك
انت لن تذهب للساح وحيدا
ان في الساحة عيدا
إنني صغت النشيدا
أنا لا أومن بالحب الأناني
أيّها الفارس خذني : ازدهي في
[مهرجاني
لك حبي وحناني
ان في قلبي اغاني
وأماني
انني في ريعاني
انني في عنفواني
سوف يرضيك جهادي
وتنادي
أنت اختٌ عربيّه
انت الهبت الحميّه
واثرت الأريحيّه
واذا كنت الفدا لا تبالي
انا يحييني الردى
انا ازهو بجمالي
وارى ان يخلدا
ايها الفارس لا تشفق عليّ
كن قويا
إنني اشعر بالوثبة فيّ
اشرفت في مقلتيّ
انا عطر الغوطة النشوى
انا عطر اميه
والهوى المؤمن سر العبقريه
قوتي من سر حبي
الف بركان بقلبي
يتهيّا
وإذا متّ جريئه
ميتة الثأر الهنيئه
ميتة الثأر الوضيئه
كم عذارى سلبوها حسنها
حسن العذارى
ثم اردوها فماتت ميتتين
ميتتين
يا رفيقي اعطني اليوم سلاحي
الهب الثأر جراحي

دمشق

عزيزة هارون

لن تستطيع أن تدفع ترفاً ثمن الحروب الإستعمارية المتتالية ، والتي سوف تلقى شيئاً بعد شيء ضغط هيئة الأمم وشعوب مؤتمر باندونغ) ونظرت إليهم الحكومة الجزائرية بحق ، من جانب آخر ، نظرتها إلى « عصاة » فإذا بهم عرضة للكراهية (التي لم يعملوا على اجتنابها أو على تحويل مجراها) وللحلول اليائسة : « الهجرة أو الموت» .

أما أنا فأقول : لا . وأمام هذا المأزق أقدم حلنا الوحيد : وهو أن ندرك واقع الجزائر الحقيقي وننتصر له ، وأن نقبل ، مهما يكن الثمن ، ليلة كليلة ٤ آب ، وأن نجيب على عزتنا كفرنسيين يعيشون في الجزائر بفخارنا بأننا جزائريون . وهل يخون الإنكليز والإسبانيون والأميركيون عرقهم وتقاليدهم حين يختارون وطنهم الجديد ؟ إننا لنجد منذ الآن الشعب الفرنسي وعدداً من زعمائه السياسيين يعترفون للجزائر بحق حكم نفسها بنفسها ، وبحق اختيار مصيرها ضمن إطار الصداقة الفرنسية . والوقت قد حان ، ليفهم الفرنسيون المقيمون في الجزائر أن الحل الوحيد لأمرهم ، هم الذين يشعرون بتضامنهم مع ذلك البلد (حتى انهم يفضلون أن يقتلوا فيه على أن يغادروه) ، هو أن يعوا الواقع الوطني عن طريق جهد مشترك يقومون به مع أولئك الذين كانوا يعدونهم بالأمس أعداء . إن المسلمين والأوروبيين ، وقد ولدوا ونشأوا في أرض واحدة واغتذوا بحب واحد ، ليربحون أجزل الربح إذا ما ركنوا إلى الأحترام الواحد المتبادل وإلى أن يجددوا معاً عملا حقيقياً مشتركاً .

ولكن ، هل تقبلون أن تتخلوا عن بعض الأوهام والآراء المبيتة ، في سبيل سلامة الجميع ؟ إنني أخشى أن يكون ذلك أيضاً ضرباً من الخيال والوهم ، وأن يكون المصير ، مصير الجزائر الأم ، أن تخلق ، بسبب خطاياكم ، بدوننا وضدنا . وهنا يتمزق القلب ، قلبنا نحن الذين نعلم حق العلم كم يود أصدقاؤنا العرب والبربر ، رغم كل الآلام التي لقوها منا ، ورغم كل الإرهاب الذي نلقاه منهم ، أن يركنوا إلى الأخوة والمساواة والحرية التي تعلموا تقديسها من خلال تقاليد أنكرناها نحن أحياناً .

هذا هو يا« جان بيير » ما علي أن أقوله لك لئلا أعد بدوري من حملة اليأس . لقد آن الأوان لنختار ، ولنفضل على الأوهام العرقية واقع بلد ووطن .

« ع »